نابليون وفاليفسكايا الحسناء

رواية هذا العدد

وهي رواية تاريخية

كتب كثيرون عن غرام نابليون وحبه للسيدة فاليفسكايا البولونية الفاتنة وذهبوا في رواياتهم مذاهب شتى ولكن فريدريك ماسون روى تفاصيل هذا الحب كما يأتي

في أول يناير من عام ١٨٠٧ وقف الامبراطور عدة دقائق في طريقه الى وارسو عند باب مدينة برونيه ليغير خيل عربته . واجتمع عند باب المدينة جمهور عظيم من الناس لتحية منقذ وارسو ومحررها وظهرت فجأة بين جماهير الفلاحين والعمال سيدتان على جانب عظيم من الجمال وحسن البزة احداهما حديثة السن شقراء ذات عينين دعجاوين زرقاوين نجلاوين يشع منهما نور السرور والانشراح وقد اندفعت هذه حتى وقفت أمام الفاتح العظيم وخاطبته بقولها : اهلا وسهلا! وألف مرة أهلا وسهلا ! ادخل بلادنا على الرحب والسعة انناهما بالغنا في الترحيب لا نستطيع ان نعبر عما تكنه قلوبنا لك من الشكر والاجلال ولا عن السرور الذي يخالج افئدتنا . ان قلوبنا ترقص طربا لدى رؤياك في بلادنا التي تنتظرك لتمنحها الحرية لتستطيع النهوض والسير الى الامام .

وفيما كانت السيدة تنثر هذه الدرر من ثغرها البسام توجه نابليون بكليته اليها واضطرب كعصفور بلله القطر من تأثير سهام لحظها وتناول باقة زهور كانت الى جانبه في العربة وقدمها اليها

وكانت تلك الغادة تدعى ماري فاليفسكايا من أسرة فقيرة اشتهرت بكثرة عدد أفرادها وبناء على أمر والديها تزوجت وهي فتاة حديثة السن من الشيخ

أنسطاس فاليفسكي من ذوي اليسار وكان قد تزوج مرتين وبلغ السبعين من عمره وكان أكبر احفاده يزيد عمره تسع سنوات عن عمر ماري .

جاءت الأخبار بأن الامبراطور سيمر في تلك الجهة فقام الأهلون وقعدوا وأخذوا يعدون المعدات في وارسو لاستقباله باحتفال عظيم لادخال السرور على فؤاده فقد كان أهل بولونيا يتوقعون منه تحريرهم بلادهم . فعزمت ماري الحسناء على أن تقابله قبل كل احد ودون أن تدرك ما كانت تفعل دعت احدى بنات عمها لمرافقتها وركبت معها عربة سارت بهما إلى بورنيه كما قدمنا . ولما سارت عربة الامبراطور جثمت في مكانها موجهة اليه انظارها ونسيت ما يحيط بها ولم تعد إلى رشدها إلا بعد أن نبهتها رفيقتها فأخذت اذ ذاك منديلا أبيض ولفت به باقة نابليون وعادت إلى منزلها فوصلته ليلا .

وعزمت على أن تحفظ تلك المقابلة في طي الكتمان وأوعزت إلى بنت عمها بحفظ هذا السر وعزمت من جهة أخرى على أن لا تشترك بعد في حفلات استقبال الامبراطور وان لا تقابله بتاتاً . وفي صباح ذات يوم جاءتها رسالة من الامير يوسف بونياتوفسكي يرجوها بها تحديد ساعة لمقابلتها ثم زارها بعد الظهر وأفهمها انه واقف على سر مقابلتها ودعاها لحضور حفلة راقصة سيحييها اكراماً للامبراطور فتوردت وجنتاها وتظاهرت بأنها لا تدري ما يقول . فقال لها انه في خلال حفلة أقيمت اكراماً للفاتح العظيم وجه نابليون التفاته للاميرة ليوبومير سكايا فلحظ الحاضرون منه ذلك وأخذوا يحضرونها له في كل حفلة تقام له غير ان ديورك قال لبعضهم ان الامبراطور مال الى تلك الاميرة لأنها تشبه امرأة حسناء مجهولة قابلته في بورنيه ووصف شكلها وملابسها وذكر حادثة مقابلتها تفصيلاً ولكن لم يستطع احد معرفة تلك الغادة المجهولة التي سلبت لب نابليون

ثم استطرد الأمير الحديث وقال ولكن رفيقتك جاءت الي وذكرت الحادثة بحذافيرها فطرت اليك مسرعاً أدعوك لحضور الحفلة الراقصة . فرفضت الدعوة

لكل اباء وشمم ولكنه الح والحف وقال ، « من يعلم ؟ ان الله اختارك آلة أو واسطة لارجاع وطننا الينا » فأصرت على الرفض واذ ذاك استنجد الامير بزوجها الذي لم يكن يعلم من الامر شيئا فقام هذا بدوره يقنعها بقبول الدعوة وقال : أنا أعلم ان رفضك هذا ناجم عن جبن لأنك لم تتعودي للآن حضور الحفلات وارتياد الاجتماعات وان في مقابلتك للامبراطور شرفا كبيراً لنا وأنا لا اطلب منك فقط اجابة الدعوة بل آمرك بذلك . اذ ذاك قبلت الدعوة وذهبت الى الليلة الراقصة وطافت قاعات المنزل حيث توجهت اليها الانظار واحدق بها الهمس واللمز ثم اجلسوها بين سيدتين لا تعرفهما .

وما هي الا برهة وجيزة حتى اصبحت هذه الحسناء المجهولة هدفاً لانظار كبار ضباط الجيش وتكأكأوا حولها ، هذا يرشقها بابتسامة وذاك يرميها بنظرة وآخر يقدم نفسه لها الأمر الذي اساء الامبراطور فعزم على التخلص من أولئك المزاحمين فأرسل اوامره بارسال باوره ليودفيك الى الفيلق السادس المعسكر في باسارج . وارسال برتران الى معسكر البرنس جيروم في بريسلافر وارسال غيرهم الى جهات مختلفة . وقد نفذت الاوامر في الحال في خلال الليلة الراقصة وبعد ان غادروا المكان خلا الجو لنابليون فجعل يطوف قاعات المنزل حتى دنا من ماري فأخذت السيدتان المجاورتان لها تدفعانها بكوعيهما لتقف فوقفت مضطربة ممتقعة اللون وخفضت نظرها واذا بها تسمع الكلمات الآتية ، ان اللباس الأبيض لا يناسب السيدة البيضة ثم همس في اذنها قائلا ، ان لي الحق بمقابلة اخرى في غير هذا المكان . فلم تجبه بلفظة وبعد دقائق معدودة غادر المكان وخرج . وما كادت ماري تصل منزلها حتى دفعت اليها وصيفتها رقعة قرأتها بصعوبة شديدة جاء فيها ما يأتي :

« لم تكتحل عيناي برؤية غيرك في الحفلة . ولم يعجبني احد سواك . انا

لا أريد غيرك . أجبني بسرعة . وسكني روع فؤاد برحه الهوى والوجد . »

« ن »

فاستاءت جداً من مضمون الرقعة التي لم يعجبها نسق كتابتها فضلاً عن انه اثار فيها السخط والغضب ودعكتها بيدها . وعلمت بان الامير يوسف بونياتوفسكي واقف على الباب ينتظر الجواب قالت لوصيفتها اذهبي وقولي له « ان لا جواب له عندي » فلم يثن هذا عزمه بل دخل المنزل حيث وجد ماري في غرفة نومها وقبل ان يدخلها اوصدتها وخاطبته من وراء الباب قائلة : اني عزمت عزماً ثابتاً لا يتزعزع على ان لا أقابله . فجعل الامير يتوسل اليها بكل ما اوتيه من طلاقة اللسان وبديع البيان ولبث نصف ساعة وراء الباب يلح عليها ويلحف راجياً متوسلاً متضرعاً فصادف كلامه آذاناً صماء وخرج كالمجنون لا يعي على شيء

وما كادت ماري في اليوم التالي تستيقظ من نومها حتى دفعت اليها وصيفتها رقعة ثانية فلم تفتحها ووضعتها مع الرسالة الاولى وامرت باعطائهما للرسول . ثم وقفت حائرة مبهوتة لا تدري ما تفعل فقد كان لها من العمر ثماني عشر سنة وفي الوقت نفسه كانت وحيدة لا تجد ثقة تستشيره بأمرها وتسترشد برأيه

ولا بد من شكوى لذي مروءة يواسيك او يسليك او يتوجع

وقد كرست كل قواها لتدافع عن نفسها ولكن انى لها مقاومة جميع المحيطين بها وقد اتفقت كلمتهم على حملها على ما تأباه نفسها الابية واصبح صالونها من أول النهار مملوءاً بأكابر رجال الحكومة وعظمائها وممثليها ومعهم المارشال دي يورك ثم خاطبها اعظم رجل في الحكومة البولونية بلهجة قاسية قائلا « انه يجب اتيانها السيدة على كل واحد منا ان يخضع لعوامل الظروف والاحوال التي لها علاقة هامة جداً بمستقبل الأمة برمتها ولذا فاننا نرجو ان تخفضي من عنفوانك وتقبلي الدعوة لحضور

الغداء الذي ستقيمه للفاتح العظيم ونرجو ان لا تكوني بولونية خامدة الشعور الوطني .

فصدعت بالأمر ونهضت وتوجهت في الحال بناء على امر زوجها الى السيدة فوبان خليلة الامير يوسف لتستشيرها في الملابس التي ترتديها والاصطلاحات المتبعة في البلاط في مثل هذه الدعوات الرسمية

فتلت السيدة فوبان على مسامعها الخطاب الآتي المرسل لها من اقطاب الامة وزعمائها ورجال حكومتها الوقتية وهو

ايتها السيدة ! ان الاسباب التافهة ينجم عنها احيانا نتائج هامة . ان النساء في كل آن وزمان لعبن دورا هاما في مجاري السياسة العالمية . وان التاريخين القديم والحديث يؤكد ان هذه الحقيقة الراهنة . وما دام الهوى متغلبا سائدا على الرجال فانكن ايتها النساء تكن آلات حادة ذات قوة لا يتغلب عليها احد .

نحن نعتقد انك لو كنت رجلا لقدمت نفسك ضحية في سبيل قضية الوطن العادلة وكامرأة لا تستطيعين خدمته بقوتك وشجاعتك لان طبيعتك تحول دون ذلك . ولكن توجد ضحية أخرى في استطاعتك تقديمها للوطن بل يجب ان تأخذيها على عاتقك مهما كانت ثقيلة على طبعك ومبادئك واذكري في الوقت نفسه أن استير قدمت نفسها للملك أحشورش خدمة لابناء جنسها وقد أكسبها ذلك ذكراً ومجداً دائمين إلى الابد

ونحن نستطيع أن نقول ذلك عن مجدك وصيتك وسعادتنا العتيدة . آه

رأت تلك المسكينة أن كل شيء قد اعدّ بسرعة لسقوط امرأة شابة ساذجة طاهرة لم تتجاوز الثمانية عشر ربيعاً . . ليس لها زوج تعتمد عليه ولا والدان يدافعان عنها ولا اصدقاء ينقذونها من هذا المأزق الحرج . بل رأت الجميع يتآمرون عليها واجمعوا على مقاومتها وتحطيم شرفها . فجثمت جامدة حائرة

لا تدري ما تفعل . ثم دفعت اليها السيدة الرسالة الثانية التي ارسلها اليها نابليون ولم تشأ قراءتها فتلت فيها ما يأتي :

« يظهر اني لم أعجبك ايتها السيدة ولم أرق في نظرك . ولي الحق بل كل الحق أن انتظر مثل هذه المقاومة . فهل أنا مخطيء في ظنوني . يظهر أن مبلك لي ضعيف جداً بقدر شدة ميلي اليك . انك سلبت راحتي . فبالله عليك هبي شيئاً من سرور السعادة لفؤادي المكلوم المستعد لعبادتك والسجود امامك . وهل من الصعب أن احظى منك على جواب انك مدينة لي بجوابين . »

ن

تأكدت اذ ذاك أن في مقابلتها له لا بد لها من ارتكاب اثم شديد . ثم ساورتها الهواجس وقالت حسن جداً لو كان في الامكان عقد صداقة ظاهرة معه مقرونة بالاحترام والاجلال لشخصه الكريم تعقبها الثقة بها ومتى تم لها ذلك تعرض على مسامعه شؤون شعبها . ثم قالت في نفسها : لا أظن انه يسمح لنفسه باستعمال القوة معي . اني لاأستطيع أن احبه . وانما استطيع أن اقدم له الاخلاص والخضوع والطاعة .

ولكن مزاعمها وتخيلاتها لم تفد شيئاً وادركت انها ليست في حاجة للكتابة له لأنهم سيحضرون مساء لايصالها اليه

وعند نصف الساعة الحادية عشرة مساء طرق بابها طارق فأليسوها بسرعة ووضعوا على رأسها قبعة واسدلوا على وجهها خماراً ولفوها بعباءة مزركشة وأخذوها وهي في حالة جنون وذهول وأجلسوها في عربة كان فيها رجل موشحاً بعباءة وسارت العربة لا تلوي على شيء ولم يحدثها رفيقها بكلمة ثم وقفت العربة أمام قصر فخم أدخلوها اليه وأجلسوها على فوتيل .

ثم دخل عليها نابليون فلما رأته بكت وانتفضت كعصفور بلله القطر . فسجد أمامها وجعل يخاطبها بصوت خافت منهدج لم تفهم منه شيئاً ثم رفع صوته وقال « زوجك الشيخ الهرم » وما سمعت هذه الكلمات حتى نهضت واتجهت جهة الباب وحاولت الفرار وقد خنقتها دموع النحيب . فجثم نابليون في مكانه دهشاً محتاراً لأنه رأى نفسه أول مرة أمام خصم عنيد من النساء . فدنا منها وأعادها بلطف وأجلسها على مقعدها وجعل يحادثها بلطف وكانت نبرات صوته تدل على الرقة والشعور الحساس ثم جعل يسائلها اسئلة متعددة ليتسقط منها بعض أجوبة يستخرج منها اسئلة جديدة فكان من قوله لها : هل باختيارك أخذت لقب ذلك الرجل الذين تعيشين معه وهل الحب الذي حملك ام الغنى والشهرة دفعاك إلى ذلك ؟ ومن حملك على تقديم شبابك وجمالك الزاهر إلى رجل يناهز الثمانين . ويظهر لي ان أمك حملتك على ذلك ويجب عليك أن تندمي على ماتم لك

وطرق طارق باب القصر عند الساعة الثانية بعد منتصف الليل : فانتفض الامبراطور غضباً وقال : ما معنى هذا ؟ ثم خاطب ماري قائلا : يا لطيفتي الحسناء ! ياحمامتي الحزينة ! نشفي دموعك واخرجي بسلام ولا تخشي الغدر بعد هذا لأنه اذا كان واقفاً امامك تضعف قوته وتتلاشى ويخفق فؤاده خفقان الحب وهو يرجو مثل هذا الحب من فؤادك . انك ستحبينه فيما بعد لأنه سيكون بكليته اليك ... هل تسمعين ما اقول ؟ ثم جعل يساعدها على لبس عباءتها ويقودها الى الباب ولكنه وضع يده على المفتاح ولم يفتح الباب الا بعد أن أقسمت له بأنها ستأتي اليه غدا .

فعادت الى البيت وقد سكن اضطرابها وذهبت مخاوفها وخاطبت نفسها قائلة . حقاً أنه كان لطيفاً طيباً كيساً وقد أشفق عليها اليوم ولكنه لا يشفق غدا . وفي اليوم التالي أركبوها وأوصلوها اليه ولما دخلت عليه ألفته عابسا مهموماً مفكراً ولما رآها قال هذه أنت ؟ انني زعمت بأني ما عدت أراك بعد . . . ثم ساعدها على خلع العباءة وأخذ قبعتها وأجلسها ووقف أمامها وطلب اليها أن تعترف له بصراحة عن سبب حضورها لمقابلته في بورني وقال لها لماذا رشقت فؤادي بسهام

غرام فؤادك خلو منه ، وكانت يده على قلبه وهو يتكلم أما يدها فلم تتحرك كما ان شفتيها لم تنبسا ببنت شفة . واخيراً قال لها وهو يكاد يفقد شعوره . حقيقة انك بولونية بجميع معاني الكلمة . وانك بجمودك هذا تؤيدين نظريتي بشأن شعبك

فأهاجت كلماته احساسها وقالت وهي مضطربة . يا صاحب الجلالة ارجوك بحق الله ان تفصح لي عن نظريتك بشأن شعبي .

فأجابها . يقولون أن الشعب البولوني جذاب ذو خفة وطيش وهوس يقدم على أي عمل بدون تروٍ دون أن يفكر بعواقبه . واذا ثار ثأروا يهبون كالنار ولا يستطيعون كبح جماح أهوائهم وميولهم وهم فوق هذا وذاك لا يحسنون اغتنام الفرص . خذي لك مثلاً شخصك . . أما طرت الي بورني كالمجنونة لتنظريه لدى قدومه ؟ وقد قدم فؤاده مقابلة تلك النظرة المنعشة وتلك العبارات الرشيقة الطلية ولكنها توارت واختفت وبحث عنها كثيراً فلم يجدها ولما جاءت اليه في مؤخرة جميع الناس كانت باردة كالجليد ولتعلم أنه كل ما تعسر أمامه أمر كلما زاد ميله اليه وسعى للحصول عليه ولا توجد قوة في الدنيا تثنيه عن عزمه . ولتعلم ايضاً ان مجرد الفكر بعدم الامكان تثير في نفسه الشهوة وتدفعه الى الهجوم . انه متعود على الحصول على كل شيء بسهولة وان عنادها يسبب له عذاباً وألماً .

وكان هيجانه يزداد شيئاً فشيئاً وبدا الغضب على وجهه وقال . « أنا أريد ـ افهمي هذا ـ إني اريد ارغامك على محبتي . اني قد أحببت اسم وطنك وجعلت له ذكراً في عالم الوجود وسأعمل له كثيراً . ولكن انظري الى هذه الساعة التي بيدي والتي سأحطمها قطعاً أمام عينيك وهكذا أحطم وطنك وأجعله عبرة من العبر اذا لبثت على عنادك .

رأت تلك المسكينة أمامها زئير الاسد وهيجانه ـ أبصرت الساعة محطمة وقد أنثرت قطعها على الأرض فأصابها دوار وسقطت على الأرض فاقدة الحواس ولما عاد اليها شعورها كانت لا تملك نفسها ورأته الى جانبها يمسح دموعها التي كانت تتساقط من عينيها

وغدت بعد هذه العلاقة تحضر كل مساء للقصر ليس بعامل الحب بل بعامل الخضوع الالزامي وعامل حب الوطن لانالته الحرية وانقاذه من الاستعباد وهذا العامل الأخير كان يبرر علاقتها في نظرها وأمام نفسها لأنها وجدت انها تستطيع اخضاع الامبراطور لسلطة نفوذها عليه

وبعد هذا لم يكتف نابليون برؤية حبيبته كل مساء بل انه طول مدة اقامته في وارسو قبل معركة ايلاو كان يطلب منها ان تحضر جميع الحفلات والمآدب التي كانوا يقيمونها له

ثم سافرت الى باريس في بدء عام ١٨٠٨ حيث كانت تجتمع بالامبراطور سراً ولم يلحظ أحد من الباريسيين أمر تلك العلاقة خلا قليلين منهم.

وفي خلال معارك ١٨٠٩ سافرت السيدة ماري الى فينا حيث أعدوا لها منزلا فخماً بجوار قصر شينبرون وهناك حملت وبعد عاد فينا سافرت الى فاليفيتش حيث ولدت غلاما في ٤ مايو سنة ١٩١٠ وسمته اسكندر فلوريان ـ جوزيف كولونا فاليفسكي

وكان الامبراطور كلما سمحت له الظروف يفسل اليها أو يدعوها للحضور الى البلاط مع ابنها الذي منحه لقب كونت الامبراطورية . ولم يكن أحد من الجمهور يعرف شيئاً عن أمر تلك العلاقة غير البولونيين. وكانت ماري لا تظهر في المجتمعات ولا تقبل أحداً في منزلها سوى بعض أبناء وطنها وكانت عيشتها بريئة هادئة

والحق الذي لامراء فيه ان قلب ماري لم يوجد له مثيل بين قلوب النساء والدليل على ذلك انها في الأيام الاخيرة عندما أحدقت المصائب بالامبراطور وغدا متروكا من الجميع وأصبح لا ملجأ له غير الموت سافرت الى فونتينبلو ولبثت طول الليل منتظرة في فناء المنزل على أمل أن يدعوها اليه . ولكنه كان في شغل شاغل عنها بالهموم المتراكمة عليه وكانت قواه خائرة من جراء الاتعاب التي تحملها ولما علم بحضورها قال : مسكينة انت ياماري ولا ريب انك تظنين بأني قد نسيتك . ولما لم تستطع مقابلته كتبت له فكتب لها الرسالة الآتية بخط يده:

« ياماري ! تناولت خطابك رقم ١٥ وان ما ابديته من العواطف أثر في

نفسي تأثيراً شديداً وذلك ليس بالشيء الكثير على نفسك الطاهرة وقلبك الطيب . فاذا انتهت مشاكلي على أحسن حال فاذهبي أنت إلى لوك أو بيزا حيث اوافيك بكل سرور وانشراح لاراك وابنك الذي لا تتغير عواطفي من جهته مطلقاً . اني ادعو لك بدوام الصحة ولا تحزني بسببي . واذكريني ولا تشكي بي مطلقاً . »

فطلبت إلى الامبراطور أن يسمح لها بمقابلته . وفي أواخر اغسطس من عام ١٨١٣ سافرت إلى جزيرة ألب برفقة ابنها واختها واخيها والقائد لاتشينسكي حيث أقامت يوماً بزمته بجانب الامبراطور في أرميتاج مادونا دي لامارجيان . ولما علمت عام ١٨١٥ انه عاد إلى باريس سافرت اليها وقابلته مراراً في قصر الأليزه وفي مالميزونا

وبعد نفي الامبراطور إلى جزيرة القديسة هيلانه اعتبرت نفسها حرة لأن زوجها فاليفسكي توفى عام ١٨١٤ . وفي عام ١٨١٦ تزوجت من قريب الامبراطور الجنرال دي أورنانو من القواد المحالين على المعاش ومن الذين اشتهروا بالبسالة في حروب نابليون . وقد تم عقد الزواج في لياج التي هرب اليها هذا القائد بعد عودة البوربون الثانية . وقد أحزن هذا الزواج فؤاد أسير جزيرة القديسة هيلانه . وقد خان الحظ ماري المسكينة حيث لم تطل أيام سعادتها . وفي ٩ يونيو من عام ١٨١٧ ولدت في لياج ثم عادت إلى باريس عندما صرحوا لزوجها بالعودة اليها . ولكنها بعد قدومها بوقت قصير توفيت في ١٥ دسمبر من عام ١٨١٧ في فندق فكتوار .

وأما ابنها الذي ذكره نابليون في وصيته وقال عنه : « اني احب أن اسكندر فاليفسكي يخدم في الجيش الفرنسي » وقد نجح هذا الشاب نجاحاً باهراً وأصبح فيما بعد دوق المارن ثم الوزير الأول للامبراطور نابليون الثالث .

(عن الروسية)